ثقافة الرجل العصرى

ونصيب الشاب المصرى منها

للأستاذ سلامة موسى

أحسن مايقال فى إيضاح الفرق بين الثقافة والحضارة أن الثقافة هى ماتتكون به . والحضارة هى ماتعمل به .

الثقافة علوم وفنون وفلسفات وعادات وتقاليد واتجاهات تكسبنا جميعها مزاجا معينا تتجه به فى سيرتنا ومعاشنا ونؤسس بها مجتمعا يتفق ومبادئ هذه المعارف ولا يتنافر معها . أما الحضارة فهى ما نعمل به من أدوات سواء أكانت هذه الادوات حسية مثل آنية الطبخ أو موادالبناء، أو آلات أو مصنوعات أم كانت معنوية مثل المؤسسات الاجتماعية المختلفة كالحكومة والمجلس النيابى والمجلس البلدى ونظام الادارة وجباية الضرائب ونحو ذلك .

والثقافة تسبق الحضارة وتؤدى اليها لأنها هى بمثابة الفكرة والحضارة بمثابة المادة . وتلك القاعدة السيكلوجية التى نسلم بها جميعا وهى أن التعرف يؤدى الى التأثر . والتأثر يؤدى الى التحرك ، هذه القاعدة تنطبق أيضا على الثقافة والحضارة . فنحن نتعرف الأشياء ثم نتأثر بهذا التعرف فنتحرك به الى عمل ما . وهذا العمل قد يكون اختراع آلة أو اكتشاف عقار أو ايجاد نظام . وهذه هى الحضارة . ويمكن أن نقول إن الحضارة الصناعية القائمة التى تمثل فى المصانع الكبرى للنسيج أو لمركبات النقل أو للبواخر والبوارج أو للطائرات — هذه المصانع انما هى الثقافة الرياضية والفيزيائية قد تجمدت فى حضارة الآلات والحديد والفولاذ ولا يمكن لأمة أن تعيش فى حضارة صناعية ما لم تحذق الثقافة العلمية التى أدت اليها ، وهى اذا أهملت هذه الثقافة العلمية فإنها سرعان ما تعود الى الحضارة الزراعية التى تتكس اليها كل أمة حين تتقهقر ثقافتها .

وكل تحرك اجتماعى يحتاج الى تحرك ثقافى ، وليس هناك غير الأمم الزراعية التى تستطيع أن تعيش على ثقافة راكدة لا تتحرك ولا تتباين ولا تتنوع ، لأن المجتمع المتحرك يحتاج الى ثقافة متحركة متباينة متنوعة ، ومن هنا ضرورة الانقلاب الثقافى لإيجاد انقلاب فى الحضارة وهذا هو ما فعلته الصين واليابان وتركيا وإيران فإنها حين أرادت أن تأخذ بالحضارة العصرية أى حضارة الصناعات والآلات اضطرت الى أن تأخذ قبل ذلك بثقافة العلوم العصرية .

وليس من المستطاع أن تأخذ أمة بالحضارة العصرية اذا كانت تعيش على ثقافة قديمة لم تستطع فى تاريخها الماضى إلا أن تثمر الحضارة الزراعية فقط ، لأن كل حضارة تحتاج الى ثقافة تنشئها ثم تفسرها وتلائمها وتماشيها . و إلا حدث الترعزع الاجتماعى الذى ينشأ من التنافر بين وسط حضارى جديد ووسط ثقافى قديم ، وأقل النتائج التى يثمرها هذا التنافر أن الفرد الذى يعيش فيه و يعانيه لا يؤمن بتقاليده وعقائده وتراث آبائه من أخلاق ثم هو مع ذلك لم يتهيأ بثقافة جديدة تزوده بميزات جديدة من العقائد والأخلاق ، وهو هنا يعيش بلا ضمير .

ولعل مما يزيد بصيرتنا بهذا الموضوع تواتر الاختبار التاريخى بشمول الفوضى الاخلاقية أيام الثورات والانقلابات ، لأن الثورة أو الانقلاب تعنى تغيرا فى الثقافة وتحركا فى الاجتماع وكلاهما يعنى تغيرا فى الضمير . وليس من الميسور على كل انسان أن يتغير ضميره بالسرعة التى تقتضيها الثورة ، لأنه حين يترك تقاليده وميزان الفضائل والرذائل الذى ورثه يحتاج الى أن يستبدل بهما تقاليد جديدة وميزانا جديدا ، لكن الثورة لا تسعفه بهما ، فهو لذلك يعيش سنوات فى فوضى أخلاقية .

وقد قلنا إن الثقافة تعنى العلوم والفنون والعقائد والعادات . ولكنا لم نقل إن الأهم من هذا كله اللغة التى يتفاهم بها الشعب ، لأن أعظم تراث اجتماعى لاية أمة هو لغتها . وهى أعظم مؤسساتها وأقدرها على خدمتها . واذا استعصت هذه اللغة على الفهم أو اذا صعب تعلمها أو اذا عجزت عن الأداء العصرى واستيعاب العلوم والفنون العصرية فإن كل شىء بعد ذلك يستعصى على الأمة ما لم تنبذ لغتها وتتخذ لغة أجنبية . ولكن هذا العمل ليس من الهينات لأن الأمة تحتاج الى مئات السنين لكى تستطيع نسيان لغتها واتخاذ لغة أخرى ، وهى فى هذا الاستبدال تتعرض لألوان من الخطر لا تحصى وقد تخدر الى هوات لا تنهض منها .

وقد قيل إن الكلمات هى بذور الأفكار ولكننا ننسى أن الكلمات أيضا هى بذور الأعمال ، فإن ألفاظ الحرية والمساواة والإخاء التى ترددت على أقلام الكتاب الفرنسيين فى القرن الثامن عشر كانت بذورا لأفكار وأعمال لمسانته نحن منها حتى فى سنة ١٩٤١ وقد تكهرب العالم سنة ١٩١٩ بـ "كلمات" ألقاها عليه الرئيس ولسون بشأن حقوق الأمم الصغيرة وتقرير المصير . ونشأت من هذه الكلمات " عصبة الأمم " وقس على ذلك .

فقاعدة الثقافة هى اللغة ، ولا يمكن بتاتا ايجاد ثقافة راقية بلغة منحطة ، ولا ثقافة متحركة بلغة جامدة ، لأن تحرك الثقافة ورقيها يجب أن يستتبعا رقى اللغة وتحركها أى تطور ألفاظها القديمة وتلبسها بالمعانى الجديدة أو اصطناع ألفاظ جديدة أجنبية أو وطنية . ومن هنا هذه الظاهرة التى يوضحها لنا التاريخ ، وهى أنه عندما وجدت الأمم الاوربية أن اللغة اللاتينية التى كانت وسيلتها الثقافية مدة القرون الوسطى قد أصبحت لا تتفاعل مع المجتمع الاوربى فى نهضته .

الحديثة ولا تسايره تأثرا وتأثيرا عمدت الى نبذها واتخاذ لغاتها العامية . وهذا أيضا هو تفسير الانقلاب الثقافي الجديد في الصين. بقيت آلاف السنين وهي تعتمد على لغة أو كتابة قديمة حجبت عنها الحضارة العصرية ، فلما استقر رأيها على الأخذ بهذه الحضارة عمدت الى لغتها فاستحدثت منها طرازا جديدا للآراء يتفق وضرورات هذه الحضارة .

ومهما كتبنا فإننا لن نبالغ في قيمة اللغة للأمة ، تعني اللغة العصرية التي تقبل التطور وتقدر على الاستيعاب للفنون والعلوم واصطناع الألفاظ الجديدة، اللغة التي لا يجد فيها المفكر حرجا يضيق عليه تفكيره ويضطره باتخاذ ألفاظ لا تؤدي أغراضه ، أو تمنعه من أن يتناول بعض الموضوعات العلمية أو الفنية أو الفلسفية لأنه يجد عجزا في اللغة عن أداء معانيها .

وبعد هذا الذي قلنا عن اللغة وخطورتها يجب حين نصف الرجل المثقف أن نقول إنه الذي يحذق لغة من أرقى لغات العالم العصري ، وأنه لن يستطيع أن يطمع في ثقافة عصرية أو أن يتفهم العصر الذي يعيش فيه أو يود أن يعيش فيه ما لم يكن متوسعا متعمقا في لغة عصرية راقية كل الرقي الممكن . واللغات تتفاوت : فهناك اللغة التي أقصى ما ينتظر منها أن تميز بين النور والظلمة ولكنها تعجز عن التمييز بين الفجر والغسق . وهناك اللغة التي تعد خرساء بإزاء العلوم والفنون الحديثة والمعاني الفلسفية المبتكرة. فلا يمكن لمن يحذقها أن يقول إنه مثقف ، لأن الرجل العصري يحتاج إلى لغة عصرية تستوعب كل هذه الشئون وإلا فإنه يجهلها ويعيش "كائنا" في حضارة يجهل مأتاها ومعناها ومغزاها ويجهل القوات المحركة فيها

فالشرط الأول للرجل المثقف هو اللغة الراقية العصرية ، ومحال أن يعد إنسان مثقفا لغة غير راقية أو غير عصرية .

أما الشرط الثاني فهو إدراك المغزى من الحضارة القائمة أو الحضارة السائدة في العالم بدراسة العلوم . ونعني بدراسة العلوم التخصص في علم معين والإلمام بمعظم العلوم التي تتصل بالمجتمع الحاضر اتصالا يزيد بدرجة ما على اتصال غيرها . فليس من شك مثلا في أن دراسة المناجم والتربة والأغذية وطبقات الأرض والفلك كلها تعد من العلوم ولكنها تتفاوت في اتصالها أو تفاعلها مع المجتمع ، ولا يمكن انسانا مهما تخصص أن يجهل قيمة البيولوجية أو السيكلوجية أو الاجتماع أو الاقتصاد . لأنه لن يستطيع أن يفهم حتى الحرب القائمة بدون الإلمام بهذه العلوم . والحضارة السائدة هي حضارة صناعية تؤيدها وتزودها ثقافة علمية . فالانتقاص من قيمة العلوم في عصرنا أو التوهم بأن الإنسان يمكنه أن يكون مثقفا دون أن يحذقها أو يلم بها هو نوع من الهراء المضر .

والشرط الثالث للرجل المثقف هو دراسة تراث الثقافة البشرى . ونصر هذا على كلمة " بشرى " ذلك أن التراث الثقافى عربيا أو انجليزيا أو صينيا وانما هو بشرى .

وليس للاغريق المحدثين أى فضل فى كتب الأغريق القديمة أكثر مما للعرب أو المصريين أو الفرنسيين . وكذلك الشأن فى تراث الفراعنة أو العرب أو الرومان . فإن هذا التراث " بشرى " وهو مباح جميع الأفراد فى جميع الأمم . ومن واجب على كل انسان مثقف أن يتزود منه بأكثر ما يستطيع . والرجل المسيحى الذى يجهل الاسلام أو اليهودى الذى يجهل التوراة أو الانجيل الذى يعرف شيئا أو يكون ويجهل القرآن أو ابن رشد أو كل هؤلاء لا يعد أحدهم مثقفا لأنه قد ضيع هذا التراث البشرى وأهمله . وهذا التراث يحتوى الحق والباطل كما يحتوى " الخير " فى الآداب والعلوم والفنون وجميعها جديرة بالدرس بمقدار ما يتسع له وقتنا وعمرنا . لأن حضارة عصر الحديث هى ثمرة العصور التى سبقته بما تجمع فيه من ثقافات متباينة متغيرة متصورة . وقد يستطيع الانسان أن يعين مادة كتاب يختاره من هذا التراث ويقصد منها أن تكون ممثلة لغيرها . وهذا مجهود يستحق عناية ودرس لإرشاد الشبان المبتدئين أو المتوسطين وهو واجب على شيوخ المثقفين وقد سبق مدير جامعة هارفورد أن عين مائة كتاب ما زلت أقرأ أسماءها فى الاعلان عنها فى المجلات الأمريكية وقد قرأت معظمها . وظنى أن الشاب المصرى يحتاج فى مثل هذه " الوصفة " الثقافية ، ولكن هناك صعوبة تعترض فى الاختيار وهو أن معظم هذه المائة ليس مترجما فى اللغة العربية .

ومع ذلك يجب ألا ننسى أن القارئ العادى الذى وسعت فيه عادة القراءة واتجه اتجاها موفقا منذ نشأته أن يجمع المعارف جزافا أو احتظابا ، لأنه سوف يجد لصلة العضوية التى تربط بينها وتستريد منها . ومتى وجدت هذه الصلة العضوية فإن " الثقافة " تتكون وتنشأ منها فلسفة توجيهية للرجل المثقف بحيث يجد نفسه عضوا عاملا فى مجتمع يتفاعل معه ويصل بين حضارته وثقافته .

والآن نسأل نفسنا : ما هو نصيب الشاب المصرى من الثقافة العصرية ؟

والجواب ليس بالهين اليسير . فإن أول شرط للثقافة العصرية أن تكون اللغة عصرية تستوعب معانى الحديثة والعلوم والفنون المبتكرة . ورجال اللغة عندنا عاملون على ما يقتضيه العصر من تطور . وفى معجم المصرى نحو ١٢٠ علما لا نعرف فى لغتنا غير أسماء عشرة منها . أو نحو ذلك .

ثم قل منا من يحدق علما ويلم بمسائر العلوم أو باتجاهها ومغزاها وأثرها فى الحضارة العصرية . أما التراث البشرى فإنه الى الآن مقصور على التراث الغربى . وما زال فى حاجة

الى المزيد من العلم بأمر الفراعنة والاغريق والرومان والصينيين والهنود والايرانيين القدماء فضلا عن قلة درايتنا بالمحدثين وأثرهم فى الثقافة العصرية .

وفى مصر حضارتان : احداهما القديمة وهى الزراعية، وهذه تقنع بثقافة راكدة من الآداب والفنون ومكانها الريف والمدن الكبيرة التى كالريف . والأخرى جديدة وهى صناعية نجد مثالها فى المدن ورجالها يعتمدون على اللغات الأجنبية .

فنحن فى أسر حضارتين وثقافتين متباينتين . ومن هنا الأزمة الأدبية التى نعانيها

سلامه موسى

القصار العظام

يقول السيكلوجى المعروف الدكتور يونج إن الشخص القصير يجد كل مرة يلتق فيها بالقامة المديدة مايذكره بطموحه. أما الرجل الطويل فلا يجد مثل هذا المنبه. ومن هنا التحليل المعقول للتفوق البارز الذى نجده أحيانا فى قصار القامات .

ويذكر التاريخ أفذاذا من الشخصيات البارزة تفوقوا فى الحرب والسياسة مثل :

يوليوس قيصر وكانت قامته ٥ أقدام و بوصتين .

نابليون بونابارت وكانت قامته ٥ أقدام و بوصة .

الاسكندر الأكبر وكانت قامته ٥ أقدام وثلاث بوصات .

سون يات سون وكانت قامته ٥ أقدام

وفى هذه الأسماء مايعزى القصير عن قصره